مجلة
المصدر
The Source
مجلة علمية محكمة

العدد (5)
ديسمبر 2017

تصدر عن جامعة العبقرية
جمهورية مصر العربية

الترقيم الدولي : 978-977-724-024-6

www.geniusuniv.com

رقم الإيداع : 2014/14700 .

9 789777 240246
TEC-IT.COM

مجلة

المصدر العلمية المحكّمة

العدد الخامس

ديسمبر 2017 م

هيأة التحرير

رئيس التحرير

- د.عطا بركات، جامعة العبقرية بمصر.

مدير التحرير

- د. أحمد الهادي رشراش أستاذ مشارك، كلية اللغات– جامعة، طرابلس – ليبيا .

رئيس اللجنة العلمية

- د. مليكة ناعيم أستاذة مؤهلة (مشارك)، كلية اللغة العربية، جامعة القاضي عياض، مراكش.

أعضاء هيأة التحرير

- أ. د. ضياء غني لفتة العبودي ، بروفسور، كلية التربية ، جامعة ذي قار، العراق.
- أ. د. يحيى جبر، مدير دائرة المعارف /جامعة النجاح الوطنية، فلسطين .
- غزلان هاشمي، أستاذة جامعية، جامعة الشريف مساعدية، الجزائر .
- د. خالد كاظم حميدي وزير الحميداوي : كلية الشيخ الطوسي الجامعة، العراق .

المدقق اللغوي

- د. فايز الكومي

أعضاء الهيأة العلمية الاستشارية

- أ. د.أحمد يحي علي، جامعة عين شمس، مصر.
- أ.د.رفيق الدياسطي ، جامعة حلوان ، مصر .
- د.عالية شعبان،جامعة المنصورة ، مصر .
- د. سناء شعلان، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، الأردن.
- أ.د.شريف بموسى عبد القادر من جامعة أبي بكر بلقايد ــ تلمسان ــ الجزائر.
- د.رشا عبد الله الخطيب ، الجامعة العربية المفتوحة – الأردن.
- د.خالد النجار ، جامعة القصيم ، السعودية .
- د. فايز أحمد محمد الكومي، جامعة الخليل وجامعة القدس، فلسطين.
- **د.** رافد مطشر السعيدان، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة ذي قار.
- د. عز الدين بن محمد الناجح عدالة ، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة تونس – تونس.
- د. فاطمة السلامي، كلية اللغة العربية، جامعة القاضي عياض، المغرب.
- د. سعيد العوادي، كلية اللغة العربية، جامعة القاضي عياض، المغرب.
- د. محمد فجال، أستاذ مشارك، جامعة الملك سعود، السعودية.

- د.يحي بكلي ، جامعة طيبة ، السعودية .
- د. ساجدة مزبان محمد، كلية التربية ابن رشد، جامعة بغداد، العراق.
- د. أحمد قادم، كلية اللغة العربية، جامعة القاضي عياض، المغرب.
- د. هشام فتح، كلية اللغة العربية، جامعة القاضي عياض، المغرب.

هيأة تحكيم العدد الخامس

- أ.د منتصر عبد القادر الغضنفري، جامعة الموصل / العراق.
- أ.د يحي جبر، جامعة النجاح، فلسطين.
- دة. ريحان اليندوزي، كلية اللغة العربية، المغرب.
- أ. د. عالية عبده محمود شعبانـــ جامعة المنصورة، مصر.
- أ.د. السيد فضل، جامعة بنها، مصر.
- خالد التوزاني، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، المغرب.
- أ. د. محمد بن محمود فجَّال، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية
- أ.د.ساجدة مزبان حسن ، جامعة بغداد، كلية التربية ابن رشد، العراق
- أ.د. فايز أحمد محمد الكومي، جامعة الخليل، فلسطين
- د. هشام تهتاه، جامعة عبد المالك السعدي، المغرب.
- د. حيدر محسن الشويلي، جامعة ذي قار، العراق.
- دة .رشأ الخطيب/ محاضر غير متفرغ، الجامعة العربية المفتوحة/ الأردن
- د. رحماني زهر الدين، جامعة محمد البشير الإبراهيم، الجزائر.
- د. محمد الفرجي، أستاذ التعليم العالي مساعد بكلية اللغة العربية، جامعة القاضي عياض، المغرب.
- أ.د. منتصر عبدالقادر الغضنفري، جامعة الموصل، العراق.
- الحسن بواجلابن، المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، مراكش. المغرب،
- د. أحمد محمد ويس، جامعة البحرين، مملكة البحرين.

أهداف المجلة وشروط النشر

تنشر مجلة المصدر للعلوم الإنسانية البحوث والدراسات باللغتين العربية والانجليزية ، وتتعامل مع الإنتاج العلمي المبتكر، بعد عرضه على لجنة المجلة العلمية لتتبنى قرارا ينص على قبول البحث أو رفضه، ثم يحال البحث بعد الموافقة المبدئية إلى لجنة تحكيم تختارها هيأة التحرير.

تهتم المجلة بالقضايا العلمية التي تتوافر فيها الأصالة والابتكار والواقعية ، وتكون المعالجات المطروحة في البحث الذي تقبله المجلة بمعزل عن التقليد ، يضاف إلى ذلك إتباع المنهجية السليمة وفق أسس البحث العلمي الحديث، ثم الاهتمام بالتوثيق العلمي مع الحرص على الأمانة العلمية في طرح المعالجات .

تحرص المجلة وهيأة التحرير فيها على اللغة السليمة وأسلوب الباحث في عرض إنتاجه وتسويق فكرته وترغيب القارئ في متابعة أحداث البحث .

مجلة المصدر مجلة دولية نصف سنوية محكمة، ولا ينشر فيها بحث دون تحكيم بقرارين: قرار داخلي من هيأة المجلة ومجلس إدارتها ، وقرار لجنة المحكمين ، ويتم عرض البحث على محكمين اثنين، كل محكم منهم له قراره ، وبناء على قرارات المحكمين يتم قبول البحث أو عدم قبوله أو قبول البحث مع التعديل .

ولا يحق للباحث الناشر أن ينشر بحثه بعد الموافقة عليه في مجلة أخرى ويوقع على تعهد خطي بذلك.

وعلى كل باحث يرغب في النشر قراءة نشرة المجلة وقواعد النشر فيها ، لأن المجلة متميزة، كما يوحي بذلك عنوانها، في أن موضوعاتها من صفوة الموضوعات ولا تنشر كلاما لا فائدة فيه.

تنشر المجلة الأبحاث العلمية في المجالات الأدبية، والعلوم الإنسانية والاجتماعية ومجالات الاقتصاد والإدارة والعلوم التربوية واللغوية والإعلام ، إلى غير ذلك من العلوم التي تعالج وقائع أدبية وإنسانية واجتماعية .

التسليم:

يتم إرسال البحث إلى سكرتير المجلة على أن يكون البحث خاضعا لقواعد النشر في المجلة ، وألا يزيد البحث عن ثلاثين صفحة ، بما في ذلك الهوامش والمراجع والجداول و الأشكال والمواقف ، مع مراعاة الترقيم والأشكال وفق ما ورد في المعالجات.

الجماهير البليغة

محاورة مع المشروع البلاغي للدكتور عماد عبد اللطيف

د. سعيد العوادي

جامعة القاضي عياض/المغرب

أستاذ زائر بجامعة محمد الخامس أبو ظبي/ الإمارات

ملخص:

قطعت البلاغة العربية اليوم أشواطا بارزة في التجديد والعصرنة، وأنتجت وفق ذلك عددا من المشروعات الرائدة مثل المشروع البلاغي للدكتور عماد عبد اللطيف الذي سعى إلى تأسيس بلاغة الجماهير في الوطن العربي. وتحاول هذه المقالة أن تقرب للأذهان المحاور الكبرى لهذا المشروع، ولكن ليس بطريقة تقليدية تعتمد على التلخيص البارد. وإنما تتبع طريقة حوارية تسعى إلى الإضافة التي من شأنها أن تعمق هذا المشروع المهم.

وبذلك، تناولت المقالة بالدرس مجموعة من المحاور الكبرى مثل عصر الجماهير، والانتقال من بلاغة المخاطِبين إلى بلاغة المخاطَبين، ودراسة بلاغة الجمهور بين الانفعال والفاعلية.

Article: The Rhetorical masses

Dialogue with the rhetorical project of Dr. Imad Abdul Latif

1- Arabic Rhetoric today has developed considerably in renewal and modernization, and has accordingly produced a number of pioneering projects such as the rhetorical project of Dr. Imad Abdul Latif, who sought to establish the rhetoric of the masses in the Arab world. This article attempts

to bring to mind the major axes of this project, not in a traditional way, which is based on mere obsolete summary, but rather by following a dialogical approach capable of deepening this important project.

Thus, the article deals with a number of major axes such as the era of the masses, the transition from the rhetoric of speakers to that of receivers, and the study of the rhetoric of the public between emotion and effectiveness.

Article: In The Need for Thesus The use of fallacy in the advertisement discourse

□

تسعى هذه المقالة إلى تناول المشروع البلاغي للدكتور عماد عبد اللطيف بوصفه أول مشروع بلاغي عربي يولي أهمية كبيرة لقطب المخاطَب ويسجل إنجازاته البلاغية من القديم حتى عصر الثورة، وسنتجاوز الطريقة التقليدية المقتصرة على تلخيص المشروع وإعادة صياغته إلى فتح حوار منتج معه، يسلط الضوء على الانتقال التاريخي للبلاغة من قطب المخاطِبين إلى قطب المخاطَبين، مع ما يستتبع ذلك من تجديد للنقاش الفلسفي والسياسي حول مفاهيم السلطة، والخطاب، والديموقراطية، والثورة، والعوام، والمركز، والهامش، والإعلام...

وحتى ينضبط هذا الحوار في حدود واضحة، فإننا سنروم الإجابة عن سؤالين بارزين، هما: كيف خرجت الجماهير من سراديبها المظلمة، لتفتح عيونها على حياة مضيئة؟ وما طبيعة الأنماط الخِطابية البليغة التي صنعتها هذه الجماهير؟

1/ عصر الجماهير:

في مقابلة مع جريدة لاستامبا الإيطالية، يصرح السيميائي والروائي الكبير أمبرتو إيكو أن "تويتر وفايسبوك تمنح حق الكلام لفيالق من الحمقى، ممن كانوا يتكلمون في البارات فقط بعد تناول كأس من النبيذ، دون أن يتسببوا بأي ضرر للمجتمع، وكان يتم إسكاتهم فورا. أما الآن فلهم الحق في الكلام مثلهم مثل من يحمل جائزة نوبل، إنه غزو البلهاء".

ينتبه إيكو من خلال كلامه السابق إلى أن ثمة تحولا خطيرا تعرفه البشرية في حق الكلام من الخاصة من المفكرين وأهل الرأي أو حملة جائزة نوبل حسب تعبيره، إلى العوام أو الجماهير الذين سمّاهم بـــ"فيالق من الحمقى" ممن كان يُسكَت صوتهم ولا يعتد به.

والواقع، أن هذا الرصد فيه كثير من الاستهجان لكلام الجماهير، إذ عدّ إيكو غزوهم لوسائل التواصل الاجتماعي الحديثة كتويتر وفايسبوك بمثابة "غزو البلهاء". في حين أن هذا الغزو مرتبط بحركة التاريخ التي تقلب فيها الموازين والحقوق والمهام وتتبادل فيها الأدوار بين المركزي والمهمش، ولا سبيل إلى إدراك حركة التاريخ إلا من خلال ذات تؤمن بالتغير وترفض التصلب. وأعتقد أن في ذات إيكو شيئا من التصلب، نفهمه من إجابته في إحدى مقابلاته التلفزية، التي أعادها في كتابه "تأملات في اسم الوردة". يقول: "أنا لا أعرف الحاضر إلا من خلال شاشة التلفزيون، في حين أن لدي معرفة مباشرة بالقرون الوسطى"[1].

[1] ترجمة: سعيد الغانمي، مراجعة: أحمد الصمعي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2013، ص28.

فقد يكون انتماء هذا السيميائي الإيطالي للقرون الوسطى سببا في رؤيته المستهجنة لحق الجماهير في الكلام، ومن باب المفارقة أن خطابات الجماهير تشكل نسقا سيميائيا معقدا يمكن تحليله بالأدوات السيميائية التي اقترحها أمبرتو إيكو.

لا يطعن هذا الكلام في القيمة العلمية والإبداعية الاستثنائية لإيكو، بل هو ينبه على رد الفعل الطبيعي من صعود الجماهير إلى منصات القول بعدما كانت حكرا على الخاصة. ولذلك نجد مثل هذا الكلام عند كثير من المثقفين المعاصرين، مثل نعوم تشومسكي الذي "دخل إلى تويتر بنية البروفسور وليس بنية التفاعلي، وحين أعيته الحيلة في جر تويتر إلى مراده راح ينتقد خطابات المواقع التفاعلية بعامة، وعجزت نخبويته أن تفتح عينيها على المتغير الثقافي النوعي بانكسار زمن النخبة وثقافة النخبة وبروز الشعبي بقوته العددية والثقافية ذات المزاج المختلف"[1].

إن استهجان إيكو للجماهير، الذي اختلف حوله المتابعون والمغردون حتى يمكن أن يعد مادة بحثية في بلاغة الجماهير، له جذور ضاربة في أعماق التاريخ غذاها الفلاسفة وخاصة الخاصة من العلماء والمفكرين والأدباء. ويكفي أن نشير إلى حوار مقتضب في مسرحية السحب لأرستوفانيس:

"– حسنا ما تقول...ومن هم الجماهير الشعبية؟

- هم أبناء الفاسقين"[2]

[1] ثقافة تويتر: حرية التعبير أو مسؤولية التعبير: عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، ط1، 2016، ص24.

[2] – نقلا عن: الثقافة التلفزيونية: سقوط النخبة وبروز الشعبي: عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، ط2، 2005، ص 50.

إنه "فرز طبقي وفئوي مبكر استمر قرونا طويلة"[1] كما عبر عبد الله الغذامي، حتى غدا فرزا مسلما به، لا يقبل المراجعة أو النقاش.

ومعلوم أن المسلمات الثابتة المتحجرة تكون أكثر غموضا وضبابية حين تعرض على التحقق العلمي والاستبصار الإبستمولوجي، وبذلك، غالبا "ما يثير الجمهور والجماهير ريبة وجلة تخفي الاحتقار. ولم يدخل الجمهور والجماهير زمنا طويلا ميادين التاريخ والأدب وحتى علم الاجتماع إلا على استحياء. ألا تعرض الجماهير نفسها للنظر والذهن على أنها أشبه بكتل كيانات مبهمة عديمة الشكل وساكنة شبيهة بالأشياء؟"[2].

وحتى عندما انتبه إلى دراستها علم نفس الجماهير مع غوستاف لوبون سنة 1895 في كتابه الذائع الصيت "سيكولوجية الجماهير"، جاء الكتاب على شكل دفاع مطول عن تلك المسلمة المبهمة القائلة بـــ"حماقة الجماهير". يقول لوبون: "لنلخص كل الملاحظات السابقة قائلين بأن الجمهور هو دائما أدنى مرتبة من الإنسان المفرد فيما يخص الناحية العقلية والفكرية. ولكن من وجهة نظر العواطف والأعمال التي تثيرها هذه العواطف فإنه يمكن لهذا الجمهور أن يسير نحو الأفضل أو نحو الأسوأ. وكل شيء يعتمد على الطريقة التي يتم تحريضه أو تحريكه بها. وهذه هي النقطة التي جهلها الكتاب الذين لم يدرسوا الجماهير من وجهة النظر الجرائمية. صحيح أن الجماهير غالبا ما تكون مجرمة، ولكنها غالبا ما تكون أيضا بطلة. فمن السهل اقتيادهم إلى المذبحة

[1] – م،ن، ص50.

[2] الجمهور والطبقة: فراسوا بيرو، ترجمة: ناجي الدراوشة، دار التكوين، ط1، 2012، ص5.

والقتل باسم النضال من أجل انتصار عقيدة إيمانية أو فكرة ما. ومن السهل تحريكهم وبث الحماسة في مفاصلهم من أجل الدفاع عن الشرف"[1].

وجاء بعد كتاب غوستاف لوبون كتاب لرائد التحليل النفسي سيغموند فرويد "علم نفس الجماهير وتحليل الأنا" مؤيدا لأفكار سلفه، ومقدما لتعليق مختزل حول خلاصاته. يقول في تعليق ترادفي: "الجمهور سريع التأثر، سريع التصديق، يعوزه الحس النقدي، ولا وجود في نظره للمستبعد الحدوث. وعندما يفكر، يفكر بصور تستتبع واحدتها الأخرى بقوة التداعي، كما في الحالات التي يطلق فيها الفرد العنان لخياله، وبدون أن تتدخل سلطة ما عقلانية لتحكم على درجة مطابقتها للواقع. وعواطف الجمهور بسيطة جدا على الدوام وشديدة التأجج. وعليه، لا يعرف الجمهور لا شكا ولا يقينا"[2]. وسار في الطريق نفسه الباحث خوسيه أورتغا إي غاسيت فقد قال عما سماه بالإنسان الجمهور: "هو نموذج من البشر صنع على عجل"[3]، و"إذا ترك الجمهور سواء أكان شعبيا أم أرستقراطيا إلى رغبته الخاصة، فإنه يميل دائما إلى تحطيم أسباب الحياة لرغبتها الشديدة في الحياة"[4].

تظل كتب لوبون وفرويد وإي غاسيت وكثير منهم شكلا "علميا" يجسد "استعارة القطيع" بوصفها استعارة معرفية كبرى تبنين الجماهير في شكل أبقار أو أي حيوانات أخرى منقادة بتلقائية لراعيها، تقسو كثيرا على الجماهير، وتتناسى أنها صنيعة السلطة.

---

[1]– سيكولوجية الجماهير، ترجمة وتقديم: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت لندن، ط5،2013، ص61

[2]ترجمة وتقديم: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2006، ص33

[3]– تمرد الجماهير، ترجمة: علي إبراهيم أشقر، دار التكوين، سوريا، ط1، 2011، ص19.

[4]– م،ن، ص80.

وإذا أمكننا أن نقول مع غوستاف لوبون إننا نعيش "عصر الجماهير" بامتياز، فإننا ندعو إلى النظر في منطلقات دراسته والنتائج التي خلصت إليها. ليست الجماهير كلا لا يقبل التجزيء كما اعتقد، ولكننا أمام تنويعات جماهيرية تختلف بحسب البيئات والأزمنة والسياقات والمرجعيات والعقليات والنفسيات. وبذلك، فما تحدث عنه لوبون وتابعه فيه فرويد إنما هو نمط واحد من الجماهير التي عملت السلطة السياسية أو الدينية على صناعتها على مدار قرون عديدة، مستعملة استراتيجيات التجهيل والتضليل والتخويف والإقصاء.

وكان الأحرى بلوبون أن يدرس هذه الاستراتيجيات بدل الاقتصار على وصف طبيعة الجماهير، وهو ما درسه مفكرون آخرون مثل: برتراند روسل، ومشيل فوكو، وهابرماس، ونيتشه، جاك دريدا، وجيل دولوز، وحنة أرِنْدَت...من أجل معرفة الأسباب التي كانت وراء تكريس هذا النمط من الجمهور. ولذلك، يسهم الكتابان السابقان، بوعي أو دون وعي، في تقوية مفهوم السلطة والنخبة، كما يتحولان إلى درس تعليمي تعرف من خلاله السلطة كيف تضاعف من إمساكها برقاب الجماهير المغلوبة على أمرها، مثلما فعل ميكيافيلي في كتابه "الأمير".

لقد عرفت الحضارة الإنسانية منذ عقود قليلة صعود الجماهير من مخبأها القسري وسراديبها المظلمة، لتتغير ملامحها مع أول تماس مع الضوء. فيتحول صوتها المبحوح إلى صوت جهوري، وتتطلع روحها إلى الحرية والتغيير، مثلما لاحظنا أخيرا في جماهير الربيع العربي.

لا يتشكل "عصر الجماهير" من الجماهير وحدها كما قد يفهم من هذا التوصيف، ولكن يقوم على مجمل الوسائل الجديدة التي سمحت لها بتسلق السلم للصعود إلى منصات القول وساحات الفعل معا. ولعل أبرز هذه الوسائل التقنيات الاتصالية الحديثة التي ابتدعت مع زمن الإنترنيت مثل التصوير المباشر والفايس بوك وتويتر واليوتوب. والتي فاقت في قدراتها الانتشارية والتأثيرية

المنشورات السرية والكتابات الجدرانية والتعبيرات الملتوية التي كانت تستعملها الجماهير في مرحلة ما قبل الإنترنيت. وبذلك، يقول رونان ماكدونالد عن ظهور الشبكة العنكبوتية أنها "وفرت منصة سهلة للقراء لكي يكون في استطاعتهم التنفيس عن غيظهم ولكي يعبروا عن عواطفهم دون الحاجة للمرور بأية سلطة أو مرجعية"[1].

والأكيد، أن التنفيس عن الغيظ والتعبير عن العواطف قد غاظ النخب السياسية والفكرية والدينية التي تعودت أن تكون "قما" له سلطة صناعة القول لإنجاز الفعل المخطط له، وأن ترى في الجماهير "أذنا" تسعى إلى الإصغاء وتنفيذ الأوامر دون مناقشة أو لجاج، أو كما قال المؤرخ الأثيني توقيديدس: "القوي فعل ما بوسعه، والضعيف قاسى ما يجب أن يقاسيه"[2]. لكن التحول الجديد منح الجماهير "قما" كما للنخبة، مما شوش على هيبتها المتوارثة، ونقلها من "زمن الحصانة الثقافية للرموز إلى زمن ثقافي تصنعه تويتر تتساوى فيه القامات، ولا يصمد سوى القامة المقاومة، تلك القامة التي تدخل المضمار وتواجه الموقف"[3].

وقد ربط عبد الله الغذامي بين وسائل الاتصال الحديثة وصدح الجماهير، يقول: "إن فقدان الوسيلة هو الشيء الذي قد حجب صوت الجماهير، ثم حينما تملكت الجماهير الوسيلة تمكنوا من الإعلان عن أنفسهم وعن آرائهم (...) وعبر إعلانه تكشف المخبوء، وظهر أن الأدب لم يكن هو صوت الناس، وأن الأديب لم يكن هو ضميرهم، وتبين أن للناس صوتا وضميرا ورأيا غير ما كنا نتصور"[4]. فعندما انتقلت الوسيلة الإعلامية والتواصلية من النخب إلى الجماهير، أدى ذلك إلى

---

[1] – موت الناقد، ترجمة: فخري صالح، المركز القومي للترجمة، ودار العين، ط1، 2014، ص23.

[2] – في الثورة: حنة أرندت، ترجمة: عطا عبد الوهاب، مراجعة: رامز بوسلان، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، سبيتمبر، 2008، ص15.

[3] – ثقافة تويتر، ص19.

[4] – الثقافة التلفزيونية، ص58.

زحزحة الثوابت وتكسير الحصانات وتهاوي المسلمات. وهو ما يجب أن يدفع الباحثين إلى إعادة النظر في ترسانة المفهومات الثقافية الكبرى التي بدت آخذة في التدحرج إلى مهاوى سحيقة، بدل كيل الشتائم وإظهار الامتعاض.

كسرت أصوات الجماهير الصادحة جدار الصمت، ونتج عنها ضجيج وفوضى لا عهد به. وهال هذا الواقع المستجد كثيرا من المفكرين الذين أعلنوا عن خطاب تراجيديا النهايات، فهذا يقول بموت الكاتب، وآخر يلهج بموت الناقد، وذاك يجهر بموت الإيديولوجية، وذلك يفزعنا بموت الإنسان... والحاصل، أننا لسنا أمام واقع يحتضر، وإنما نحن أمام واقع يتغير. ولعل أهم معالمه خروج الجماهير من دائرة الخَرس والبَكم، لتعبر عن ضمائرها بمفردها دون استعانة بمن كان وسيطا بينها وبين ذواتها، وهكذا ستصبح عبارة من قبيل: "الكُتاب يعبرون عن ضمائر أمتهم" إرثا تاريخيا، في زمن يستطيع فيه الفرد الواحد التعبير عن ضميره بتلقائية.

2/ من بلاغة المخاطِبين إلى بلاغة المخاطَبين:

يقع مشروع د عماد عبد اللطيف ضمن هذا التحول، من بلاغة تعنى بالمخاطِبين إلى بلاغة تهتم بالمخاطَبين.

صحيح أن البلاغة العربية القديمة قد عنيت بالمخاطَبين عناية بالغة، إذ أنتجت اصطلاحات كثيرة تدل على هذه العناية، مثل: مقتضى الحال، والمقام، وخالي الذهن، والمتردد الشاك، والمنكر. كما نظرت إلى المخاطب "نظرة مركبة: المخاطب هو الكائن الإنساني الواقعي الذي يتوجه إليه المتكلم بالخطاب في زمان ومكان محددين، والمخاطب هو هذا الكائن نفسه وقد انتقل إلى متخيل المتكلم ليكون من العناصر المؤسسة لخطابه. المخاطب الأول بعدي، أي هو من يتوجه إليه المتكلم

بعد إنتاج الخطاب، والثاني قبلي، أي هو هذا المخاطب الذي يستحضره المتكلم قبل إنتاج خطابه، فالخطاب يقتضي أن يكون المتكلم قد كوّن فكرة مفترضة وصورة متخيلة عن مخاطبه قبل أن يواجهه بخطابه واقعيا وفعليا"[1].

بنى دارسو البلاغة على مثل هذه المعطيات تصورا عاما يقضي بأن البلاغة العربية تعلي من قيمة المخاطَب وتقصي المخاطِب. وهو تصور ليس صحيحا في عمقه؛ لأن بلاغتنا، على العكس من ذلك، هي بلاغة المخاطِبين لا المخاطَبين، والحضور البارز للمخاطَب فيها إنما هو ترسيخ للمخاطِب الذي يستحضر الأول من أجل التأثير فيه ولإقناعه بمضمون خطابه. والأمثلة المؤكدة لهذا الأمر كثيرة في تراثنا البلاغي والنقدي، مثل ما قاله ابن رشيق القيرواني في سياق حديثه عن كفاءات الشاعر: "فأول ما يحتاج إليه الشاعر، بعد الجد الذي هو الغاية، وفيه وحده الكفاية، حسن التأتي والسياسة، وعلم مقاصد القول؛ فإن نَسَبَ ذل وخضع، وإن مدح أطرى وأسمع، وإن هجا أخل وأوجع، وإن فخر خبّ ووضع، وإن عاتب خفض ورفع، وإن استعطف حنّ ورجع، ولكن غايته معرفة أغراض المخاطَب كائنا من كان؛ ليدخل إليه من بابه، ويداخله في ثيابه، فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذي به تفاوت الناس وبه تفاضلوا.. وقد قيل: لكل مقام مقال"[2].

لا يحضر المخاطَب ليعبر عن نفسه، ولكنه يحضر ليبنى عليه الخطاب. إن حضوره ذو طبيعة استراتيجية تدخل فيما سماه ابن رشيق "حسن التأتي والسياسة، وعلم مقاصد القول".

ينبه د عماد عبد اللطيف على أن بلاغتنا قد انحازت إلى المتكلم. يقول: "إن البلاغة العربية الإنشائية كانت معنية بالمخاطَب بوصفه الغرض الذي تستهدف السيطرة عليه. لكنها بوصفها

---

[1]– دور المخاطب في إنتاج الخطاب الحجاجي: حسن المودن، ضمن الحجاج: مفهومه ومجالاته، 1/ 236.

[2]– العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت–لبنان، ط5، 1996.

ممارسة علمية لا تقوم بخدمة المخاطب، بل تهدف أولا وأخيرا إلى خدمة المتكلم الذي يرغب في التأثير في المخاطب أو التغلب عليه. وعلى ذلك فإن المتكلم "الملغى" هو المحرك الأساسي لهذه الممارسة العلمية، وهو المستهلك الوحيد لها، والمخاطب "الحاضر" ليس إلا الهدف الذي يشحذ له المتكلم كلامه ليحكم سيطرته عليه. والبلاغة العربية لا تعدو وفق هذا المجاز أن تكون أداة الشحذ؛ ومن الطبيعي أن تكون في هذا السياق الضحية هي مناط الاهتمام"[1].

ووفق هذا التفكيك للممارسة البلاغية التي تعطي قيمة للمخاطِب على حساب المخاطَب، يعيد الباحث النظر في النقد الأفلاطوني الموجع للبلاغة، حيث يستعيد أفلاطون بعدما أبعدته البلاغة العربية لأسباب تتصل بهذا النقد أولا، واختيار منهج المحاورات ثانيا[2]، مؤكدا أنه لا ينتقد البلاغة في محاورتي "جورجياس" و"فيدر" بمعناها الشمولي، ولكنه "يقتصر على بعض ممارسات البلاغتين السياسية والقضائية. تنضوي هذه الممارسات على استخدام حيل لغوية وبلاغية بهدف خداع المستمع وتضليله. والغاية الأساسية لهذا الخداع والتضليل هي إخضاع المستمع لسيطرة المتكلم الذي يتقن أساليب البلاغة. ويقوم المتكلم البليغ بتوظيف قدرته على التحكم بالمستمعين في تحقيق أهدافه الخاصة، التي غالبا ما تتعارض مع أهداف المستمع. وبناء على ذلك، فإن البلاغة التي هاجمها تستحق أن توصف بأنها بلاغة "شريرة"، خاصة حينما تستخدم في إطار يمس مصالح

---

[1]– بلاغة المخاطَب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته". ضمن Proceedings of the 8th Internationl Symposium on Comparative Literature "Power and the Role of the Intellectual" 22- 24 November 2005. Cairo, p 15.

[2]– ينظر: أفلاطون في البلاغة العربية من التهميش إلى الاستعادة، مجلة الحوار الثقافي، جامعة مستغانم، الجزائر، ربيع وصيف 2015، ص 68-69.

الوطن، ففي هذه الحالة يصبح المستمع المخدوع هو الشعب، وتصبح المصالح المهدورة هي مصالح الوطن"[1].

يعد أفلاطون مدخلا مهما إلى بلاغة المخاطَبين عند د عماد عبد اللطيف، الذي يعمقه بما استجد في الثقافة الأنكلوسكسونية، وخصوصا مع التحليل النقدي للخطاب والبلاغة النقدية.

ويقترح لبلاغة المخاطَبين أو الجمهور التعريف الآتي: "تهدف بلاغة الجمهور/ المخاطب إلى اقتراح توجه بلاغي يكون معنيا باستجابات الجماهير في الفضاء العام (...) فموضوع بلاغة الجمهور إذن هو الاستجابات التي ينتجها الجمهور أثناء تلقيهم للخطابات الجماهيرية التي تبثها وسائل الإعلام. وهي تعنى بشكل أساس بالعلاقة بين هذه الاستجابات والسلطة التي يمثلها الخطاب الجماهيري أو يسعى لترسيخها أو إضفاء الشرعية عليها. والغاية الأساسية لها هي تقديم أدوات للجمهور تساعدهم على تطويع استجاباتهم أو تغييرها بما يحقق مصالحهم العامة، وليس مصالح المسيطرين على الخطابات الجماهيرية. هذه الاستجابات الجديدة والمعدلة يمكن التعامل معها بوصفها استجابات بلاغية، تساعد على تحقيق أهداف الجماهير ومصالحها"[2].

وقد تناول الباحث استجابات الجماهير عبر مداخل غير مألوفة في درسنا البلاغي قديمه وحديثه، مثل دراسته للتصفيق، الذي بحث بلاغته وفخاخه وأشكاله. وكتابه المائز "لماذا يصفق المصريون؟ بلاغة التلاعب بالجماهير في السياسة والفن"[3] دليل على ذلك.

---

[1]– موقف أفلاطون من البلاغة من خلال محاورتي جورجياس وفيدروس، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، دورية علمية محكّمة، مجلد 5، عدد 3، 2008، ص 238.

[2]– مناهج الدرس البلاغي المعاصر: مقاربة نقدية، ضمن كتاب المؤتمر: اللغة العربية وآدابها: نظرة معاصرة، جامعة كيرالا، الهند، 2015، ص 250.

[3]– دار العين، القاهرة، 2009.

هي إذن بلاغة جديدة وجادة من مناح عدة:

- أنها بلاغة ديموقراطية تفسح المجال إلى صوت الجماهير التي طالما أقبر صوتها.
- أنها بلاغة مناضلة تنحاز إلى الضعيف المغلوب على أمره، لتمكنه من آليات البلاغة التي تكشف له تضليل الخطاب المتسلط.
- أنها بلاغة منفتحة تتجاوز دراسة شكليات الخطاب وفنياته إلى دراسة الخطاب في ملابساته المتشابكة مع السلطة والوعي والتقدم.
- أنها بلاغة حية تعيش زمنها الفلكي، وتجعل خطاباته مادة قابلة للمعالجة البلاغية.

كما تراعي هذه البلاغة المبدأين الكونيين لكل بلاغة، وهما المبدأ البيداغوجي التعليمي، والمبدأ الأكاديمي البحثي.

ففي الأول، يقدم د عماد عبد اللطيف ثمانية اقتراحات ممكنة من ناحية تعليمية بلاغة الجماهير، وهي[1]:

1/ تدريب المخاطب على التمييز بين الخطاب البلاغي السلطوي والخطاب البلاغي غير السلطوي عن طريق تحديد الخصائص النوعية لكل منهما وتعميق الوعي بالتغيرات والتحولات التي تطرأ على كل منهما.

2/ تطوير قدرة المخاطب على إنتاج استجابات بلاغية (أي آنية وبراغماتية) للخطاب البلاغي للمتكلم بنوعيه السلطوي وغير السلطوي مقاومة أو تدعيما أو فضحا...إلخ.

[1]- بلاغة المخاطب، ص 21-22.

3/ تطوير قدرة المخاطب على إضعاف أو إلغاء سيطرة المتكلم على عناصر السياق لوجود حد أدنى من شروط الموقف الاتصالي غير السلطوي.

4/ تقديم لائحة بالآثار التي تترتب على سيطرة المتكلم على المخاطب والاستعانة بأمثلة تاريخية تبين للمخاطب الثمن الباهظ الذي يدفعه من جراء استسلامه لخطاب المتكلم السلطوي.

5/ تطوير قدرة المخاطب على إدراك الأغراض التي يسعى المتكلم لتحقيقها بواسطة خطابه. وهو ما يتضمن القدرة على فهم دوافع خطاب المتكلم ودلالاته.

6/ التعريف بطرق تحقيق التضليل بواسطة اللغة، ودراسة خطابات فعلية استخدمت اللغة بهدف التضليل وتطوير استجابات لغوية مضادة.

7/ تعريف المخاطب بالكيفية التي يقوم عليها خطاب المتكلم بإدراك المخاطب وتشكيل صورة للمخاطب النموذجي الذي يتوجه إليه خطابه أو المخاطب غير المرغوب فيه المستبعد من دائرة خطابه. وكيفية الاستجابة لهذه الصور.

8/ تعريف المخاطب بأنواع الخطابات البلاغية (سياسية، دينية، اجتماعية...إلخ) والخصائص النوعية لكل منها، والوظائف التي يتغيا منشئوها تحقيقها بواسطتها، والآثار التي يحتمل أن تحدثها في المخاطب.

وفي الثاني، يقدم سبعة اقتراحات ممكنة لموضوعات تبحث في نطاق بلاغة الجمهور أكاديميا[1]:

[1]– م،ن، ص 22–23.

1/ الخصائص البلاغية واللغوية للخطاب (غير) السلطوي.

2/ الأغراض التي يسعى الخطاب (غير) السلطوي لتحقيقها والاستراتيجيات والتقنيات التي يوظفها لتحقيق هذه الأغراض.

3/ العلاقة بين الخطاب (غير) السلطوي وخطاب السلطة. وكيف يمكن أن تنتج السلطة خطابا غير سلطوي.

4/ أثر نوع الخطاب (سياسي، دعائي...إلخ)، والسياق الذي ينشأ فيه (مجموع الظروف الاجتماعية والاقتصادية...إلخ)، وطبيعة العلاقة بين المتكلم والمخاطب (مثل حاكم/محكوم، واعظ/متدين...إلخ)، والوسائط المعتمدة في نقله (التلفزيون، الإذاعة...إلخ) في إنتاج خطاب (غير) السلطوي وإنتاج استجابة (غير) بلاغية.

5/ دور المخاطب في عملية الاتصال.

6/ أنواع المخاطب (نصي/فعلي...إلخ، مؤدلج/حر، المثقف/محدود المعرفة) والاستجابات التي يمكن أن ينتجها كل نوع. وقدرته على مقاومة الخطاب السلطوي، والمهارات التي يحتاجها لتحقيق ذلك.

7/ طبيعة استجابة المخاطب (لفظية/غير لفظية، مباشرة/غير مباشرة، خطابية/غير خطابية...إلخ)، وطرق تطويرها، وخصائص الاستجابة البليغة.

3/ الجماهير البليغة: بين البلاغة المنفعلة والبلاغة الفاعلة

احتفت البلاغة العربية بالمخاطِب احتفاء كبيرا، وانتهت في صيغتها العلمية إلى بلاغة مدرسية تعنى بضبط القواعد ورسم الحدود التي من شأنها أن تقوي كفاءات المخاطِب للتأثير في المخاطَب، كما انتهت في صيغتها الإنتاجية إلى بلاغة تركز على اتجاه طقوسي يحتفي بالسلط المختلفة، ويقصي أصوات المهمشين. حتى ميز جابر عصفور في مقاله العميق "بلاغة المقموعين" بين بلاغتين في تراثنا العربي: "البلاغة الرسمية التي تعرفناها في كتب البلاغة السائدة، ابتداء من منظري القرن الثالث للهجرة، وانتهاء بشراح التلخيص في القرن التاسع للهجرة، وهي البلاغة التي أنتجها البلغاء والمنظرون الذين كانوا على وفاق مع الدولة، أو في موقع الخدمة لها، أو العمل أداة من أدواتها، وهم نقليون في الأغلب الأعم، ويؤمنون بالتقليد في كل الأحوال؛ وبلاغة أخرى مقموعة في كتب البلاغة الرسمية، مسكوت عنها، لا نلتفت إليها عادة، في ظل هيمنت البلاغة التي نتوارثها، وفي سياقات السطوة التي تمارسها أبنية القمع "النقلي" في تراثنا. هذه البلاغة المقموعة أنتجتها المجموعات الهامشية التي لعبت دور المعارضة، والتي كانت على خلاف مع سلطة "الدولة القائمة"[1].

وإذا كان هذا حال الخطاب البلاغي، فإن حال الخطاب البليغ لا يختلف عنه كثيرا من حيث عنايته بنمط مخصوص من الكتابات؛ وهو النمط الذي يعلي من شأن السلط السياسية والدينية والثقافية، ولا يكاد يلتفت إلى المهمشين والجماهير البئيسة التي قد "تدنس" الخطاب وتلوث "طهارته"، مما جعل القصيدة المادحة تعتلي عرش الشعر في مدونتنا الشعرية العربية القديمة، وترسم للممدوحين صورة واحدة مكررة في جميع القصائد، فكلهم يعطون بيد ويمنعون بأخرى كما لو أنهم آلهة أرضية وجبت عبادتهم وإخلاص النية في التعامل معهم.

[1]– مجلة ألف، عدد خاص عن "المجاز والتمثيل في العصور الوسطى، ع 12، دار قرطبة للطباعة والنشر، ط 2، الدار البيضاء، 1993، ص 6.

ولم يمنع تفشي هذا الخطاب البليغ من تسجيل بعض الكتاب لنصوص تنتمي للهامش، كما نجد ذلك عند الجاحظ في كتاباته التي أوصلت إلينا نصوصا بليغة لكثير من مهمشي الثقافة الرسمية مثل البخلاء والمعتوهين، لكن هذه النصوص لم تحظ بدراسات عميقة تكشف بلاغتها المخصوصة وترصد مواجهتها للخطاب المهيمن، حيث عومل معها أنها نصوص مضحكة ومسلية ليس إلا. وهذا من الاستراتيجيات التي تعمدها السلطة عندما تسمح لبعض الخطابات الهامشية بالمرور، فيغدو الإضحاك معادلا للتافه والناقص.

لقد سبق الإلماع إلى أن الجماهير ليست كلا متناسقا أو كتلة واحدة، وإنما هي أصناف مختلفة فيها الذكي والغبي والشجاع والخائف. لذلك، فاستجاباتها متباينة تبعا لاختلاف الجماهير نفسها. وقد نقسم بلاغتها المحمولة في استجاباتها وإنتاجها الخِطابي إلى قسمين واضحين:

3-1/ البلاغة المنفعلة: نموذج اشتريت

نقصد بالبلاغة المنفعلة تلك البلاغة المتضمنة في استجابات استحسانية نصية أو سلوكية، تقوم بها الجماهير لصالح بلاغة متسلطة سوفسطائية.

وكثيرا ما تم اختزال بلاغات الجماهير في هذا النموذج الانفعالي، بسبب النظرة الأحادية للجماهير، التي تعدها غوغائية وجاهلة وقابلة لتصديق كل شيء. وكل ما أنتجته الدراسات الجماهيرية يصدق على هذا النمط.

تمكن خطاب السلطة، مدعوما بتاريخ ممتد ووسائل مساعدة، من صناعة جمهور ينفعل لذلك الخطاب، يصدق وعوده الوردية، وينجز أوامره بحرفية متقنة، فيغدو خطاب هذه الجماهير "هو خطاب السلطة: السلطة، مثل خطابها، لا توجد فوق، إنما هي مبثوثة منتشرة عائمة ذائعة،

وخطابها يبث عبر جميع القنوات، وعن طريق جميع الوسائل. نحن نلتقطه بحواسنا جميعها. إننا نقرأه ونسمعه ونشمه ونلمسه ونستنشقه على الهواء"[1].

وقد تساءل بنعبد العالي عن خطاب الجماهير المنفعلة، فقال: "أليس هذا الخطاب بالأساس خطاب التقليد والتكرار والاجترار؟ أليس هو خطاب الخضوع والعقيدة والاعتقاد؟ أليس هو خطاب الرأي والدوكسا؟ أليس هو التجسيد الواضح لآليات السلطة وفعل القوة؟ أليس هو نتيجة الترويض والتقليد والترسيخ والتشرب والتمثل؟"[2].

لا يمكننا إلا أن نجيب بنعبد العالي ببلى؛ لأن الجماهير المروضة تصادق على خطاب مروضيها وتدعمه بكل الوسائل الممكنة والمتاحة. أما عماد عبد اللطيف، فيبحث مشروعه في الوسائل البلاغية التي يوظفها خطاب الساسة لاستجلاب استجابات داعمة للخطاب ومستحسنة لحمولاته الدلالية، حيث يتوسل بمصطلح "فخاخ البلاغة" الدال على "مجموعة من التقنيات أو الحيل أو الأساليب اللغوية والبلاغية التي يتم تصميمها لاصطياد استجابات الاستحسان من الجمهور"[3]، مثل فخاخ التصفيق وفخاخ الصوت وفخاخ الأداء.

ليست السياسة وحدها من تروض الجماهير، وتفرض عليها التفاعل الإيجابي مع خطاباتها، ولكن هناك جهات كثيرة تقوم بمثل ما تقوم به السياسة، ولعل أهمها المقاولات الكبرى والشركات العملاقة التي تعمل بكل الوسائل المتاحة على تحويل الفرد من درجة المواطن إلى درك المستهلك، فترمي به في دوامة الشراء لكل منتوجاتها المختلفة والمتجددة.

---

[1]– ثقافة الأذن وثقافة العين: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، ط2، 2008، ص 114.

[2]م،ن، ص 114.

[3]– جدل الظاهرة والاستجابة: دراسة في فخاخ البلاغة، ضمن الكتاب الجماعي "البلاغة والخطاب"، إعداد وتنسيق: محمد مشبال، منشورات ضفاف ومنشورات الاختلاف، 2016، المغرب، ص 206.

وليس لها من وسيلة تصل بها إلى هذه المقاصد الكبرى سوى الوسيلة الخِطابية، وبالضبط الخطاب الإشهاري / الإعلاني، الذي أصبح خطاب العصر دون منازع، فأينما حللت أو ارتحلت تجد نفسك متوطنا فيه رغما عنك. وهو أحد جبابرة هذا الزمان الذين استولوا على كل شيء كالإعلام والمال والسياسة كذلك، ثم وجه كل ذلك لخدمة مصلحته.

ولا عجب إذا وجدنا من يعده مكونا إضافيا للهواء الذي نتنفسه، بل هناك من صوره "جيفة تواجهنا بالابتسامة"، ومنهم من استعار من ماركس ليقول إن الإشهار أفيون الشعوب المعاصرة.

يكتسب الإشهار سلطته من مصدره القوي المتمثل في الشركات والمقاولات، ومن خطابه القائم على جملة من التقنيات البلاغية التي تتضافر فيها الصورة بإمكاناتها الهائلة واللغة بقوتها وألاعيبها. وينقسم إلى قسمين كبيرين: هما الإشهار المرجعي والإشهار الجمالي حسب سعيد بنكراد[1]، ويقصد بالأول الإشهار المباشر الذي يقدم منتوجه دون لف أو دوران، حيث "يبني كل سيروراته التواصلية على المنتَج وعلى محيطه المباشر"[2]، ويقصد بالثاني الإشهار غير المباشر؛ أي الذي يسلك إلى المنتوج طرقا التوائية مدروسة، فهو "لا يكترث لحقائق المنتج ولا لخصائصه، ولا لوظائفه، فالغاية من الوصلة هي بلورة طريقة ذكية في التحدث إلى المستهلك"[3].

تأسس خطاب الإشهار، كما أشرنا آنفا، على دعائم قوية، كانت لها اليد الطولى في ميلاد بلاغة منفعلة اصطلحت عليها بـــ"نموذج اشتريت"، بوصفه استجابة انفعالية للجماهير الاستهلاكية التي تدخل في عالم لا ينتهي من الاستهلاك والشراء.

---

[1]– ينظر: الصورة الإشهارية: آليات الإقناع والدلالة، المركز الثقافي العربي، ط1، 2009، المغرب، ص 82–105.

[2]– م،ن، ص 83.

[3]– م،ن، ص 82.

وقد يبدو أن الشراء هو استجابة غير بليغة في الظاهر، في حين أن بلاغته تكمن في بناء صورة اجتماعية عن الذات والجماعة حين تقتني نوعا من المنتوجات التي تدخلها في باب الوجاهة الاجتماعية، فتعبر من خلال نوع الشراء عن عقليتها وطبقتها، حتى ولو لم تكن هي كذلك في الواقع، فإنها ترسم لنفسها صورة أخرى تحقق بها أحلامها؛ لأن الإشهار يقوم على إقناع سري بتعبير فانس باكار، ليستنفر "الانفعالات المحجوزة داخل ذات لا تعي حاجاتها بشكل عقلاني. إنه يختفي وراء قيم عامة مثمنة اجتماعيا وثقافيا كـــ: الصحة والسعادة والراحة...وهي القيم التي تشكل في واقع الأمر ثيمات أنتروبولوجية كبرى تعد إرثا مشتركا أنتجه الإنسان في رحلته الطويلة على الأرض، منذ أن خرج من كهوفه وبدأ يبني تاريخا جديدا سينتهي به إلى الانفصال الكلي عن الحيوان"[1].

وبذلك، فالإشهار يهمس في آذان الأفراد والجماهير أنه قادر على نقلهم من حال إلى حال، ومن رتبة إلى أخرى، فعندما يقول الفرد لرجل الإشهار لقد اشتريت، يرد عليه بإمكانك الآن أن تحقق أحلامك، وتقدم للآخرين صورة جديدة عنك. فالإشهار لا يبيع للناس منتوجا وكفى، بل يبيع لهم كذلك تطلعات وأفكارا وأحلاما ووضعا اجتماعيا. ومن هذه الناحية يتمكن المشتري من تغذية حاجاته اللاواعية وبناء استجابة بليغة قد تنقل دلالتها إلى الآخرين.

3-2/ البلاغة الفاعلة: نموذج ارحل

نعني بالبلاغة الفاعلة تلك البلاغة التي صدرت عن الجماهير الثائرة على سياسة القمع والمجابهة لخطاب الديماغوجيا والسلطة، ففاعليتها ناتجة عن صناعة خطاب بليغ يأبى التعزيز والموافقة، لينهض بإنتاج واقع آخر، مثلما لاحظنا في الجماهير العربية التي خرجت بدءا من أواخر

[1]- م،ن، ص 198.

سنة 2011 لتضيف فصل الربيع إلى متوالية الفصول غير المكتملة في الأنظمة العربية. وقد لاحظت المفكرة حنا أرندت المهتمة بابيستمولوجيا الثورة أن هذه الأخيرة–أقصد الثورة– هي واقعة سياسية حديثة، تقول: "إن الحروب من الناحية التاريخية هي من أقدم الظواهر في الماضي المدون، في حين أن الثورات بنوع خاص لم تكن موجودة قبل ظهور العصر الحديث، لا بل إنها من أحدث الوقائع السياسية الرئيسة"[1].

ومن الغريب أن يعد بعض المحللين أن خطاب الثورة قد زحزح عرش البلاغة، كما يقول الباحث محسن بوعزيزي: "القاعدة الثالثة تنبّه إلى سقوط البلاغة بكل أشكالها، بما هي كلام على الكلام أو لغة فوق – اللّغةMéta- langage، فلا حاجة إليها هذه المرّة إلا في القليل. لقد تحوّلت الكلمة في اللحظات الحاسمة إلى فعل، إلى رصاصة مباشرة، محاربة، غير مواربة، حتى كادت بما فيها من تحديدية تقود الثورة وتوجّه مسارها، مختزلة للزمن فيها. وهكذا يتبيّن مع أوستين كيف تصنع الأشياء بالكلمات. فالشّعب لمّا يثور لا يحتاج إلى بلاغة بل إلى ملفوظ إنجازي يتّجه إلى الفعل فيسميه بدون مجازات. إنّها اللّغة – الموضوع التي تُسقط كل أصناف البلاغة من رمز وإيحاء ومجاز واستعارة وكناية"[2]. والغرابة في هذا القول آتية من الفهم التقليدي للبلاغة الذي يربطها بالوجوه المعروفة. فلو علم الباحث أن للبلاغة أكثر من تجل لما أصدر هذا القول جزافا ودون تمحيص، فالشعوب عندما تثور تكون أكثر حاجة للبلاغة، وما سماه الباحث بالملفوظ الإنجازي هو من تجليات البلاغة، عكس ما اعتقده.

---

[1]– في الثورة، ص 14.

[2]– شعارات الثورة التونسية: لغة الحرية والكلمة–الفعل: محسن بوعزيزي، مجلة بدايات. http://www.bidayatmag.com/node/200

تجلت البلاغة الفاعلة للجماهير الثائرة في أشكال متعددة منها التقليدي والعصري، نحو المنشورات والكتابة على الجدران والشعارات والتغريدات في وسائل التواصل الاجتماعية. غير أن أهم شكل ركزت عليه هذه الجماهير هو شكل الشعار، الذي له تاريخ متصل بالجماهير، ويكفي "أن نذكّر بالأصول الأولى لهذه الكلمة لكي ندرك الموقع الحقيقي للشعار في سلوك الحشود داخل الفضاء العمومي. فكلمة slogan مشتقة في الفرنسية من أصول سلتية هي -ghairmsluagh التي تعني حرفيا "صرخة الحشود" الداعية إلى الحرب. وتدل كلمة شعار في العربية، في بعض من معانيها، على ما يكون في المقدمة، أو هو الظاهر الذي يغطي على ما تبقى من الكائنات والأشياء، إنه يشير في الحالتين معا إلى ما يتجاوز حالة الواحد الفرد لكي يكتفي بالجموع"[1].

وقد يكون شعار "ارحل" أهم هذه الشعارات، وأكثرها تأثيرا، مما يفسر امتداده وانتقاله من الدائرة الضيقة للثورة إلى الدائرة الواسعة للتغيير المجتمعي في مختلف أصعدته. وبذلك، يصلح أن يكون نموذجا للبلاغة الفاعلة التي تسعى إلى التغيير والتجديد بدل الثبات والاستقرار.

وقد انتقد بنسالم حميش الربيع العربي في بعض العناصر، منها شعار"ارحل". يقول: "أما السلبيات، فقد أفضْتُ القول فيها لبعض السائلين، أوجزها في غياب زعامات قوية جاذبة، وانحسار الإبداع في جملة من التوجهات التنظيمية، كما في وضع شعارات كان يحسن أن تتسم بشحنة رمزية أكثر بلاغة وتأثيرا...

أذكر الآن من تلك الشعارات واحدا: "ارحل" الذي ما كان له أن يُرفع ويردّد، لكونه يسيء لأدبياتنا الرحلاتية العظيمة، ولحدث الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة، التي نؤرخ بها، والهجرة والرحلة سيان، والموت رحلة، والمتوفى راحل...

---

[1]– حقيقة أم ضلال؟ ص 76.

وكبديل عن شعار "ارحل" اقترحت على شباب من حولي لفظة "ازهق" الواردة في الآية ﴿قل جاءَ الحقُّ وزهقَ الباطل. إن الباطلَ كان زهوقا﴾. وأمرُ الطغاة بالزهق يعني جرهم من كراسيهم ليمثلوا أمام المحاكم القاضية باسم الناس والمواطنين"[1].

في تصوري أن ملاحظة الباحث حول تغيير كلمة "ارحل" إلى "ازهق"، وما قاله عن إساءة الكلمة الأولى "لأدبياتنا الرحلاتية العظيمة" ليس صائبا؛ فلا أعرف كيف يسيء الفعل "ارحل" لتلك الأدبيات؟! كما لا أتصور كيف ينتقل الشباب من فعل إلى فعل، علما أن قوة الفعل الأول تكمن في سياقه الذي تولد منه.

هذا السياق مشحون بالدلالات والرمزيات، فأن تصفع الشرطية فادية حمدي الشاب البوعزيزي، وتصرخ في وجهه بلكنة فرنسية "Dégage"، ثم ينقلب السحر على الساحر، فتغدو هذه الكلمة هي مهيجة الثورات العربية، فهذا هو الذي يمنح الكلمة قيمة وعمقا وحضورا.

بل إن سعيد بنكراد يرى أن كلمة "ارحل" لم تكن لها من دلالة مؤثرة خارج السياق الثوري، يقول: "فلم يكن لكلمة "ارحل" التي رفعتها الجموع في كثير من الأقطار العربية أي قيمة في مداخلها القاموسية بكل تنويعاتها، أو في سياق الوقائع الإبلاغية المعزولة، ولكنها تحولت في أفواه الحشود، ضمن سياق إبلاغي من طبيعة سياسية، إلى شعار يتجاوز المدعو إلى الرحيل، إنها دعوة عامة إلى التغيير تطال المؤسسات والقيمين عليها، لقد أضافوا إليها الحس الجسدي: طاقة الإيماءة وصرخة الوجه والحركة والاصطفاف الاجتماعي والأيدي المرفوعة إلى السماء. فهذه الأشياء جميعها تعد

[1]– عن الربيع العربي: بنسالم حميش. مجلة هسبريس. http://www.hespress.com/art-et-culture/233659.html

جزءا مهما من المضمون المباشر للشعار، أو هي الوجه الفعلي له، فبدون هذه الحركات ستعود "ارحل" إلى سابق عهدها كلمة صامتة في قاموس أخرس"[1].

نستشف من النص السابق، إشارة بلاغية مهمة تكتنزها كلمة "ارحل" أنها لم تعد تدل دلالة ضيقة، في إشارتها إلى المدعو، وإنما أصبحت دعوة إلى التغيير. كما أنها تفاعلت مع "الحس الجسدي" لتكتمل قوتها الشعارية.

ولي إضافات أخرى، تكشف عن بلاغة هذا الشعار، وأوجزها في العناصر الآتية:

- ترجمت الثورة الفعل الفرنسي "Dégage" إلى "ارحل" في حركة عروبية ذات أبعاد دلالية قوية، كما كان للفعل الفرنسي المرتبط بالشرطية، بوصفها "سلطة مؤنثة"، تأثير بارز في تحريك الذكورة والفحولة برصيدها التاريخي والفروسي.
- أعمل الثوار مبضع أوكام في الشعار، فاقتصدوا اللغة لتتحول إلى علامة بصرية واحدة، تحتفي ببلاغة الإيجاز الشديد، الذي يتخلص من المقدمات و"شحوم" اللغة، مما احتفلت به بلاغة السلطة في خطبها الطويلة التي تحتكر الكلام، وتتلذذ بتمطيطه، وسط وابل من التصفيق، وسيل من الهتافات.
- تعلم الثوار من بلاغة السلطة أن الأمر الذي يمتلك قوة حرفية، يشترط فيه الاستعلاء والإلزام بوصفهما دالين على السلطة. وقد نقل الثوار قاعدة الأمر كما تشكلت في بلاغة السلطة إلى فضاء الجماهير، ليصرخوا بأعلى أصواتهم أنهم قد أصبحوا فاعلين في مسرح التاريخ

[1]– حقيقة أم ضلال؟: سعيد بنكراد، ضمن ملف "الشعارات..وليمة المغلوبين"، مجلة الدوحة، ع 102، أبريل 2016، ص 76.

العربي، وأن السلطة انتقلت إليهم، لذا حافظ الفعل"ارحل" على قوته الحرفية، ولم يخرج إلى الدلالات الاستلزامية.

- الفعل "ارحل" لا يعين اسم الشخص، إمعانا في احتقاره وعدم الاكتراث له، فضلا عن معاملته معاملة الغريب، فالطاغية ليس ابن الوطن ولا تربطه به علاقات إنسانية، فما عليه إلا أن يرحل. كما لا يحدد الفعل وجهة الرحلة؛ لأنها ليست مهمة. فما يهم الثوار هو بقاء الوطن، أما الطاغية فيجب أن يرحل عنه.

أرادت هذه المقالة أن تحتفي بمشروع البلاغي المصري عماد عبد اللطيف، بطريقة حوارية تهدف إلى إغنائه، بدل تلخيصه وعرض أفكاره مما سيضحي بكثير من تلك الأفكار، وقد يكون الحاصل منها هو التشويش والاضطراب.

وهكذا، أبرزت المقالة أن مصطلح عصر الجماهير الذي يلهج به كثير من المثقفين يحتاج إلى تدبر وإعادة القراءة، مادام يفهم منه أن الجماهير ترادف الجهلة والغوغائية والدهماء. دون أن تتريث في الفهم لتعلم أن الجماهير كيانات مختلفة، فيها المنفعلة التي تنتج بلاغة سلبية داعمة لبلاغة السلطة، وفيها الفاعلة التي تنتج بلاغة إيجابية تواجه بلاغة السلطة وتبني لنفسها زمنا جديدا يسمح فيه صوتها ويكون بالغ التأثير.

المصادر ومراجع

1. (أرندت) حنا

- في الثورة، ترجمة: عطا عبد الوهاب، مراجعة: رامز بوسلان، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، سيبتمبر، 2008.

2. (إيكو) أمبيرتو:

- تأملات في اسم الوردة: ، ترجمة: سعيد الغانمي، مراجعة: أحمد الصمعي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2013.

3. (بنعبد العالي) عبد السلام:

- ثقافة الأذن وثقافة العين، دار توبقال للنشر، ط2، 2008.

4. (بوعزيزي) محسن:

- شعارات الثورة التونسية: لغة الحرية والكلمة–الفعل، مجلة بدايات. http://www.bidayatmag.com/node/200

5. (بنكراد) سعيد:

- حقيقة أم ضلال؟، ضمن ملف "الشعارات..وليمة المغلوبين"، مجلة الدوحة، ع 102، أبريل 2016.

- الصورة الإشهارية؛ آليات الإقناع والدلالة، المركز الثقافي العربي، ط1، 2009، المغرب.

6. (بيرو) فراسوا:

- الجمهور والطبقة، ترجمة: ناجي الدراوشة، دار التكوين، ط1، 2012.

7. (حميش) بنسالم:

- عن الربيع العربي: مجلة هسبريس. http://www.hespress.com/art- et-culture/233659.html

8. (عبد اللطيف)عماد:

- أفلاطون في البلاغة العربية من التهميش إلى الاستعادة، مجلة الحوار الثقافي، جامعة مستغانم، الجزائر، ربيع وصيف 2015.

- بلاغة المخاطَب؛ البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته. ضمن: Proceedings of the 8th Internationl Symposium on Comparative Literature "Power and the Role of the Intellectual" 22- 24 November 2005. Cairo.

- جدل الظاهرة والاستجابة: دراسة في فخاخ البلاغة، ضمن الكتاب الجماعي "البلاغة والخطاب"، إعداد وتنسيق: محمد مشبال، منشورات ضفاف ومنشورات الاختلاف، 2016، المغرب.

- مناهج الدرس البلاغي المعاصر؛ مقاربة نقدية، ضمن كتاب المؤتمر: اللغة العربية وآدابها: نظرة معاصرة، جامعة كيرالا، الهند، 2015.

- موقف أفلاطون من البلاغة من خلال محاورتي جورجياس وفيدروس، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، دورية علمية محكّمة، مجلد 5، عدد 3، 2008، ص 238.

9. (عصفور) جابر:

- بلاغة المقموعين، عدد خاص عن "المجاز والتمثيل في العصور الوسطى، مجلة ألف، ع 12، دار قرطبة للطباعة والنشر، ط 2، الدار البيضاء، 1993.

10. (رينان) ماكدونالدز:

- موت الناقد، ترجمة: فخري صالح، المركز القومي للترجمة، ودار العين، ط1، 2014.

11. (القيرواني) ابن رشيق:

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت-لبنان، ط5، 1996.

12. (الغذامي) عبد الله:

- الثقافة التلفزيونية: سقوط النخبة وبروز الشعبي، المركز الثقافي العربي، ط2، 2005.

- ثقافة تويتر: حرية التعبير أو مسؤولية التعبير، المركز الثقافي العربي، ط1، 2016.

13. (لوبون) غوستاف:

- سيكولوجية الجماهير، ترجمة وتقديم: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت لندن، ط5، 2013.